بلاغة التكرار في القرآن الكريم[1]

من خلال رسائل النور

مقدمات

المقدمة الأولى: التكرار لغة واصطلاحاً

الكاف والراء أصل صحيح يدل على جمع وترديد من ذلك كررت، وذلك رجوعك إليه بعد المرة الأولى، فهو الترديد الذي ذكرناه.[2]

والكر: مصدر كرّ عليه يكر كرّا. الحبل الذي يصعد به النخلة. والكرّ أيضاً وجمعه كرور: حبال الشراع.[3]

والكر: الرجوع. كرّر الشيء وكركره: أعاده مرة بعد أخرى. والكرة: المرة، والجمع الكرّات ويقال: كررت عليه الحديث وكركرته: إذا رددته عليه.

الجوهري: كررت الشيء تكريراً وتكراراً، قال أبو سعيد الضرير: قلب لأبي عمرو: ما بين تِفعال وتَفعال؟ فقال: تِفعال اسم، وتَفعال بالفتح، مصدر.[4]

---

(١) ألقي في المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي "نحو فهم عصري للقرآن الكريم رسائل النور أنموذجاً" ٢٠-٢٢ ايلول ١٩٩٨.

(٢) معجم مقاييس اللغة كر.

(٣) إصلاح المنطق كر.

(٤) لسان العرب كر.

وفي مفردات الراغب: الكرّ العطف على الشيء بالذات أو بالفعل، ويقال للحبل المفتول كر، وهو في الأصل مصدر وصار اسما وجمعه وكرور. قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾(الإسراء:٦) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:١٠٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾(البقرة:١٦٧) ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ (الزمر:٥٨).[١]

وقد وردت هذه المادة في مواطن أخري من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (النازعات:١٢) ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك:٤).

وبالنظر إلى ما ذكرته المعاجم يتبين أن المادة تؤول إلى الجمع والترديد، والرجيع والعطف على شئ، فكذلك الكلام المكرور كأنه يردد ويجمّع به إلى تقوية المراد كما يتوصل بالحبل إلى أعلى النخلة.

المقدمة الثانية: التكرار ظاهرة جمالية وبلاغية

على الرغم من أهمية أسلوب التكرار وشيوعه في الكلام منذ الجاهلية، حيث استعمله الشعراء العرب وأكثروا منه، إلا أن علماء البلاغة والاصطلاح لم يفصلوا في معناه، وكأهم سكتوا عنه، وأوجزوا لوضوح دلالته، وإن كانوا ذكروا أهميته، وفصلوا بعض التفصيل في أنواعه، كالذي فعله ابن رشيق في "العمدة"، فقد ذكر أن "للتكرار مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه".[٢]

وقد ضرب ابن رشيق أمثلة من القرآن الكريم ومن شعر العرب. فمن الشعر

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن.

(٢) العمدة، ص ٦٨٣.

ذكر أمثلة لتكرار المعاني، من شعر امرئ القيس،(1) وأمثلة لتكرار الأبيات، ومن شعر أبي كبير الهذلي،(2) وأمثلة للتكرار المعيب من شعر أبي تمام،(3) ما ذكر بعض ما يدخل في التكرار، مثل المذهب الكلامي،(4) وهو لون أشار إليه ابن المعتز في كتابه "البديع"، ورده إلى أبي عثمان الجاحظ، وذكر أنه معزو إلى التكلف فلذلك لا نجد منه شيئا في كتاب الله تعالى.

المقدمة الثالثة: التكرار في الشعر

حفلت أشعار العرب منذ جاهليتهم بأسلوب التكرار، فهـو إذن أسـلوب عربي معروف، وقد تعددت صوره، واختلفت أسبابه. وقد وجدنا أستاذنا عبـد الله الطيب من أكثر من عني -من المحدثين- بالوقوف على ظـاهرة التكـرار في الشعر العربي، رابطا إياه بالإيقاع من جهة، والدلالة من جهة أخرى، مبيناً أنـه "لما كان الانسجام كله مداره على التنويع والتكرار، فمظاهر التكرار الأربعة لا تتعدى التكرار المحض والجناس، ومظاهر التنويع لا تتعدى الطباق والتقسيم، فهذه هي الأصناف الأربعة التي يقوم عليها رنين البيت بعد الوزن والقافية".(5)

وأما دلاليا فـ" الغرض الرئيسي من التكرار هو الخطابة، ونعني بالخطابة: أن يعمد الشاعر إلى تقوية ناحية الإنشاء... من طريق التكرار".(6)

وأما أنواع التكرار -عنده- فيمكننا "أن نحصر التكرار الذي يحدثه الشعراء في ألفاظ شعرهم في الأنواع التالية:

---

(١) نفسه، ص ٦٩٠.

(٢) نفسه، ص ٦٨٦.

(٣) نفسه، ص ٦٩٣.

(٤) نفسه، ص ٦٩١ وما بعدها.

(٥) المرشد إلى فهم أشعار العرب، ص ٤٩٤.

(٦) نفسه، ص ٤٩٥.

١- التكرار المراد به تقوية النغم

٢- التكرار المراد به تقوية المعاني الصورية.

٣- التكرار المراد به تقوية المعاني التفصيلية.[1]

ومما اشتهر من ألوان التكرار في الجاهلية، تكرار العبارة التي تنبسط على شطر بكامله، ومن ذلك تكرار الحارث بن حلزة، في عدد من أبيات القصيدة، قوله:

"قربا مربط النعامة مني"

وقول المهلهل يرد عليه:

"قربا مربط المشهر مني"

وقد أكثر المهلهل من هذا القري، من ذلك تكراره قوله:

"يا بجير الخيرات لا صلح حتى".

وقوله في رائيته المشهورة: "على أن ليس عدلاً من كليب".

وجعل الدكتور عبد الله الطيب هذا من التكرار النغمي، وألحق به - من الشعر المعاصر - ذلك التكرار الذي يعاد فيه بيت كامل أو بيتان، للفصل بين أقسام القصيدة الواحدة. "ويبدو أن اللغة العربية قد عرفت هذا النوع من الإعادة في دهرها الأول.. والذي يدلنا على أن العربية قد عرفت هذا النوع من التكرار أمران: أولهما: إننا نجد نحواً منه في القرآن، في بعض السور المكية، مثل: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن، ومثل ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ في سورة القمر. ولا أحسب أن القرآن قد فاجأ العرب بضرب جديد من التأليف، إذ التزم هذا التكرار في هذه السور، ونحواً منه في غيرها... والأمر

---

(١) نفسه.

الثاني.. هو ما نجده من رواسب هذا الأسلوب وآثاره في بعض الأشعار التي بين أيدينا من تراث الجاهليين، وحتى في بعض الأشعار الإسلامية.".[1]

وقد تجددت ظاهرة التكرار في الشعر المعاصر، مما لفت نظر الأستاذة نازك الملائكة، فبحثت هذه الظاهرة في كتابها "قضايا الشعر المعاصر" ذاهبة إلى "أن التكرار بالصفة الواسعة التي يملكها اليوم في شعرنا، موضوع لم تتناوله كتب البلاغة القديمة التي ما زلنا نستند إليها في تقييم أساليب اللغة".[2] وهو أمر صحيح إجمالاً، إذ لا يحتل التكرار، باعتباره أسلوباً بلاغياً، إلا حيزاً ضئيلاً في كتب البلاغة، قياساً إلى غيره من صور البيان والبديع. وقد عددت نازك من ألوان التكرار:

١- تكرار كلمة واحدة في أول كل بيت.

٢- تكرار العبارة.

٣- تكرار بيت كامل.

٤- تكرار المقطع كاملاً.

٥- تكرار الحرف.

كما عنيت بدلالة التكرار في صوره المتعددة.[3]

المقدمة الرابعة: التكرار عند علماء الإعجاز

لما كان التكرار أسلوباً بلاغياً، ورد في القرآن الكريم، في صور عديدة، كان علماء الإعجاز -البياني منه خاصة- مؤهلين أكثر من سواهم لمعالجة هذا الموضوع وتفصيل الحديث فيه، بيد أن الناظر في كتب الإعجاز لا يظفر بما يروي

---

(١) نفسه، ص ٤٩٦.

(٢) قضايا الشعر المعاصر، ص ٢٤١.

(٣) للتوسع، يرجع إلى المرجع السابق، الفصل الثاني والثالث من القسم الثاني من الكتاب.

غلته، فمنهم من مرّ على الظاهرة مروراً عابراً، ومنهم من لم يلتفت إليها، وأما الذين وهبوها قدراً من العناية فقليل ما هم.

ولو أننا رجعنا، مثلاً، إلى ما قاله الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن" عن التكرار، لوجدناه يمر به مراً سريعاً، هذا على شدة عنايته بتلمس مظاهر الإعجاز البلاغي. يقول أبو بكر الباقلاني: "ومن البديع عندهم: "التكرار"، كقول الشاعر:

هلا سألت جموع كنـــ ـــدة يوم ولوا أين أينا؟

وكقول الآخر:

وكانت فزارة تصلى بنا فأولى فزارة أولى فزارا

ونظيره من القرآن كثير، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ (الشرح:٥-٦).

وكالتكرار في قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (الكافرون:١) وهذا فيه معنى زائد على التكرار، لأنه يفيد الإخبار بالغيب".[١]

وفي هذا -كما لا يخفى- إشارات ذكية، إلا انه أوجز إيجازاً يترك بالقارئ ظمأ إلى مزيد.

على أن بعضهم ينكر أن يكون في القرآن الكريم تكرار، ويسمي ما جاء منه على تلك الصورة تصريفا، لا تكرارا. وهذا كما أنكرت فئة أن يكون في القرآن الكريم سجع وسموه ما جاء ضربيا له فواصل. ولا أرى هذا إلا تصرفا في المصطلح، دون الدلالة، وهم يقولون: لا مشاحة في الاصطلاح. على أننا

---

(١) إعجاز القرآن، ص ١٠٦.

نستعمل مصطلح التكرار عند النورسي، لأن النورسي رحمه الله تعالى سماه كذلك، وإن كانت له فيه نظرات متميزة، وهذا ما يسعى هذا البحث إلى تبيانه.

بديع الزمان وبلاغة التكرار في القرآن الكريم

بلاغة التكرار معجزة

بالنظر إلى ما كتب بديع الزمان سعيد النورسي حول التكرار في القرآن الكريم، وقياساً إلى ما رأينا عند علماء الإعجاز، نستطيع أن نطمئن إلى أن تميز بديع الزمان كان من وجوه:

منها أنه انتبه إلى أن التكرار في القرآن الكريم معجز.

ومنها أنه عني بالتكرار بنوع من التفصيل لم يسبق إليه .

ومنها أنه رصد بلاغة التكرار، فحدد أنواعها، والتمس أسبابها، وذكر صورها، واستنبط الحكمة منها.

ومنها أنه قرر أن "لا تكرار إلا في الصورة" في القرآن الكريم، وهذه كلها وجوه متميزة، لم يسبق إليها، فيما أعلم ، وإن كانت في الوجه الأخير - يلتقي بقدر مع من قالوا بالتصريف.

لقد أشار بديع الزمان إلى أربعين وجها من وجوه الإعجاز التي لا تحد للقرآن الكريم الذي هو منبع المعجزات والمعجزة الكبرى للرسول ﷺ، فكان التكرار أحد تلك الوجوه.

يقول بديع الزمان: "ثم إن القرآن الكريم يظهر نوعاً من إعجازه البديع أيضاً

في "تكراره البليغ" لجملة واحدة، أو لقصة واحدة، وذلك عند إرشاده طبقات متباينة من المتخاطبين إلى معان عدة".[1] ويؤكد النورسي أن التكرار "هو إعجاز في غاية الروعة والإبداع، وبلاغة في غاية العلو والرفعة".[2]

فما مظاهر ذلك الإعجاز وتجلياته؟

نوعا التكرار

التكرار في القرآن الكريم نوعان:

١- تكرار الجملة

٢-تكرار القصة

فالنوع الأول: يدخل فيما سماه ابن رشيق التكرار اللفظي، معتبراً أن "أكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني"،[3] "ومن المعجز من هذا النوع قول الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ كلما عدد منّة أو ذكّر بنعمة كرر هذا".[4] وهذا التكرار اللفظي، أو تكرار الجملة، كما يقول بديع الزمان، شديد الصلة بالمعنى، بحيث "يبرز إعجازاً رائعاً وإحاطة شاملة".[5]

فتكرار الجملة يكسب الخطاب تجدداً بتجدد الطبقات وتجدد العصور، إذ هو لا يتوجه إلى أولئك الذين عاصروا الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب، "بل يخاطب مع ذلك طبقة في كل عصر -لكونها فرداً من أفراد دستور كلي-

(١) الكلمات، ص ٥٢٨.

(٢) نفسه، ص ٥٢٩.

(٣) العمدة، ص ٦٨٣.

(٤) نفسه، ص ٦٨٥.

(٥) الكلمات، ص ٥٢٦.

خطابا نديــا طريــا جديداً كأنه الآن ينـــزل عليهم".[1]

وهكذا شأن التعقيبات التي على رؤوس كثير من الآي "ولا ســيما كثــرة تكراره "الظالمين... الظالمين..." وزجره العنيف لهم وإنذاره الرهيب من نــزول مصائب سماوية وأرضية بذنوبهم ومظالمهم، فيلفت الأنظار -بهذا التكــرار- إلى مظالم لا نظير لها في هذا العصر، بعرضه أنواعاً من العذاب والمصائب النازلة على قوم عاد وثمود وفرعون، وفي الوقت نفسه يبعث السلوان والطمأنينة إلى قلــوب المؤمنين المظلومين، بذكره نجاة رسل كرام أمثال إبراهيم وموسى عليهما السلام".[2]

وهكذا يؤدي التكرار، في هذا السياق، وظيفة مزدوجة، فتكرار "الظالمين.... الظالمين" تقريع للكفار من جهة، وهو المنطوق، وتطمين للمؤمنين مــن جهــة أخرى وهو المفهوم.

وهذا التكرار المعجز هو الذي يعجز عن إدراكه غير المسلم وغــير العــربي بوجه أخص. لقد عقد توماس كارلايل في كتابه: (الأبطال)، فصلاً شائقاً سمــاه "البطل في صورة رسول" عرض فيه لمحمد ﷺ، ونسب إليه من الفضائل ما شاء، ورد كثيراً من ترهات الغرب وأبطلها، ولكنه حين جاء إلى القرآن الكريم نفسه، لم يجد بداً من أن يفرق بين أثر القرآن الكريم في العرب الفــصحاء، وأثــره في الغربيين، ولمح إلى ظاهرة "التكرار" في القرآن الكريم فقال: "أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اخــتلاف الأذواق في الأمم المختلفة، هذا وإن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحــسن الــصياغة، ولذلك لا عجب إذا قلت إن الأوربي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء، فهو يقرأه

(١) نفسه.

(٢) نفسه، ص ٥٢٦-٥٢٧.

كما يقرأ الجرائد، لا يزال يقطع في صفحاتها قفاراً من القول الممل المتعب، ويحمل على ذهنه هضاباً وجبالا من الكلم، لكي يعثر من خلال ذلك على كلمة مفيدة، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة، ولأن الترجمة ذهبت بحسنه ورونقه، فلذلك رآه العرب من المعجزات، وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لإنجليهم".(١)

إن كارلايل إذن يعترف أن الغربيين يرون ظاهرة التكرار في القرآن سبباً في العناء وفي جعل القول مملاً متعباً. ولكنه يكشف أن سبب ذلك هو أن الترجمة تذهب بالحسن والرونق، ومن هنا فترجمة القرآن على الحقيقة ليست قرآناً، ولن يدرك بلاغة القرآن وإعجازه البياني، ومنه التكرار، إلا من أوتي من فهم العربية حظاً عظيماً.

وهنا أمران، مما ذكرهما كارلايل، تنبه إليهما بديع الزمان وشرحهما وأفاض فيهما القول.

فأما الأمر الأول فيتعلق بالملل الذي قد ينبع من التكرار.

إن كل كلام إذا ما تكرر كثيراً مدعاة للملل والسآمة والضجر، إلا ما كان من كلام الله تعالى، فإنه "لا يخلق على كثرة الرد" كما جاء في الحديث الشريف، بل لا يزيده التكرار إلا بهاء وتجديداً وجلالا، فيكون ذلك من صور الإعجاز فيه، يقول بديع الزمان:"إن القرآن الكريم قد أظهر عذوبة وحلاوة ذات أصالة وحقيقة بحيث إن التكرار الكثير –المسبب للسآمة حتى من أطيب الأشياء– لا يورث الملال عند من لم يفسد قلبه ويبلد ذوقه، بل يزيد تكرار تلاوته من عذوبته وحلاوته، وهذا أمر مسلم به عند الجميع منذ ذلك العصر، حتى غدا مضرب الأمثال".(٢)

---

(١) كتاب الأبطال، ص ٩١-٩٢.

(٢) الشعاعات، ص ١٧٧.

وفي هذا النص لفتة من لفتات الأسلوب البديعي -نسبة إلى بديع الزمان- وهو الجمع بين العمق والبساطة، فهو لكي يؤكد الفكرة ويجليها يضرب لك الأمثال القريبة، فلذلك يكون هذا الجمع بين المعنوي والحسي في السياق، ذلك بأنه كان في معرض شرح لذة عقلية مصدرها تكرار القرآن، فإذا به يشير إلى السآمة النابعة من "أطيب الأشياء إذا تكررت، فكأن "أطيب الأشياء تنصرف إلى الحسي من الأشياء أيضاً، وإذا بنا نتذكر كيف أن من "أطيب الأشياء المن والسلوى الذي جعله الله تعالى طعاماً لبني إسرائيل، فإذا هم لكفرهم يشعرون بالسآمة والملل ويخاطبون موسى عليه السلام ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ (البقرة:٦١).[١]

وأما الأمر الثاني فهو استحالة ترجمة القرآن الكريم، وهو أمر قرره بديع الزمان في أكثر من رسالة من رسائله، وفي عدة مواضع، وقد كشف النورسي خبث بعض من أراد ترجمة القرآن الكريم ليرى الناس تكراراته غير الضرورية[٢] ورد عليه رداً حاسماً فقال:

"لا يمكن قطعاً ترجمة القرآن الكريم ترجمة حقيقية.. وإن أية لغة غير اللغة العربية الفصحى عاجزة عن الحفاظ على مزايا القرآن الكريم ونكته البلاغية اللطيفة.. وإن الترجمات العادية الجزئية التي يقوم بها البشر لن تحل -بأي حال- محل التعابير الجامعة المعجزة للكلمات القرآنية التي في كل حرف من حروفها

---

(١) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ (البقرة:٦١).

(٢) قال النورسي في "الكلمات" "طرق سمعي قبل اثنتي عشرة سنة أن زنديقا عنيدا قد فضح سوء طويته وخبث قصده بإقدامه على ترجمة القرآن الكريم، فحاك خطة رهيبة للتهوين من شأنه بمحاولة ترجمته، وصرح قائلا ليترجم القرآن لتظهر قيمته؟ أي ليرى الناس تكراراته غير الضرورية ولتتلى ترجمته بدلاً منه.. إلى أخره من الأفكار السامة. إلا أن رسائل النور بفضل الله قد شلت تلك الفكرة وعقمت تلك الخطة بحججها الدامغة وبانتشارها الواسع في كل مكان". ص ٥٣٨.

حسنات تتصاعد من العشرة إلى الألف، لذا لا يمكن مطلقاً تلاوة الترجمة بــدلاً منه"(١) ومن المعلوم أن الكلام يتكون من الألفاظ والمعاني، وإن أي ترجمة إنما هي محاولة لنقل المعنى، أما اللفظ وإيحاؤه وإشراقه فذلك أمر لا يترجم، وقــد نبــه الجاحظ إلى أن الشعر لا يترجم إذ "لو حوّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، مع أنهم لو حوّلوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجــم في كتبهم"(٢) وكذلك الشأن في كتب الهندسة، والتنجيم، والحساب، واللحــون "فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله -عز وجل- بما يجــوز عليه مما لا يجوز عليه".(٣)

تكرار التلاوة

على أن النورسي يضيف أمراً بالغ الأهمية، وما رأيت أحداً سبقه إليه، وهو أن الترجمة حين تتعلق بالقرآن الكريم لا تبقى محصورة في الألفاظ والمعاني، بل في أمر آخر لطيف وهو يتعلق بالتكرار أيضاً، ولكنه تكرار من نوع جديد: إنــه تكــرار التلاوة، هذا التكرار الذي يعطي صاحبه دفقاً شعورياً إيمانياً لا تحققه أي ترجمــة، ذلك بأن التلاوة حينئذ تتناول كلام الله عز وجل، فتنشأ عن تلك التلاوة فيــوض من البركات، أنى لجزء منها أن يتحقق خارج تلاوته كما أنــزل، بلسان عــربي مبين؟ إن تلك التلاوة تتجاوز اللفظ، الذي هو صورة للمعنى، وتتجاوز المعنى، إلى شئ آخر لا تتحقق منه إلاّ لطائف الروح، وذلك كله يــزداد تحققــا بــالتكرار، ويحدثنا النورسي عن تجربته الخاصة فيقول: "عندما كنت اقرأ يوم عرفــة ســورة الإخلاص مائة مرة مكررا إياها باستمرار لاحظت: أن قسما من حواسي الروحية

---

(١) الكلمات، ص ٥٣٨.

(٢) الحيوان، ص ١/٧٥.

(٣) نفسه، ص ١/٧٧.

اللطيفة، بعدما أخذت غذاءها بالتكرار قد ملت وتوقفت، وأن قوة التفكير فيّ قد توجهت إلى المعنى، فأخذت حظها، ثم توقفت وملت. وأن القلب الذي يتـذوق المعاني الروحية ويدركها، هو أيضاً قد سكت، بعدما أخذ نصيبه من التكرار.

بينما بالمواظبة والتكرار المستمر على القراءة رأيت أن قسما من اللطائف في الكيان الإنساني لا يمل بسرعة، فلا تضره الغفلة التي تضر قوة التفكير، بل إنـه يستمر ويداوم في أخذ حظه بحيث لا يدع حاجة إلى التدقيق والتفكير في المعنى، إذ يكفيه المعنى العرفي الذي هو اسم وعَلَم، ويكفيه اللفظ والمعنى الإجمالي لتلـك الألفاظ الغنية المشبعة، بل ربما يورث سآمة ومللا حينما يبدأ التفكّر يتوجـه إلى المعنى، ذلك لأن تلك اللطائف لا تحتاج إلى تعلم وتفهيم بقدر ما هي بحاجة إلى التذكر والتوجيه والحث.

لذا فإن اللفظ الذي هو أشبه بالجلد يكفي لتلك اللطـائف في أداء وظيفـة المعنى، وخاصة أن تلك الألفاظ العربية هي مبعث فيض دائم، إذ تذكر بـالكلام الإلهي والتكلم الرباني.

فهذه الحالة التي جربتها بنفسي تبين لنا:

إن التعبير بأي لغة كانت غير اللغة العربية، عن حقـائق الأذان وتـسبيحات الصلاة وسورة الإخلاص والفاتحة التي تتكرر دائما، ضار جداً، ذلك لأن اللطائف الدائمة تبقى محرومة من نصيبها الدائم بعدما تفقد المنابع الحقيقية الدائمة التي هـي الألفاظ الإلهية والنبوية، فضلا عن أن يضيع في الأقل عشر حسنات لكل حـرف، ولعدم دوام الطمأنينة والحضور القلبي لكل واحد في الصلاة، تبعث التعابير البشرية المترجمة عن الغفلة ظلمتها في الروح.. وأمثالها من الأضرار الأخرى".(١)

---

(١) المكتوبات، ص ٤٣٧-٤٣٨.

لقد آثرت نقل هذا النص على طوله لأهميته القصوى.

ففيه بيان لفضل تكرار تلاوة القرآن، وما يحدثه ذلك من فيوضات رحمانية وفيه تحديد لدرجات الإدراك، من الحس إلى العقل إلى القلب، إلى ما فوق ذلك جميعاً من تلك اللطائف الخفية، فحين يتوقف الحس بعد امتلائه، ويمل العقل بعد أخذ حظه من المعنى ويسكت القلب بعد أخذ نصيبه من التكرار، تظل تلك اللطيفة الخفية حية متجددة، ولا يزيدها التكرار إلاّ تألقا وما ذلك إلاّ لأنها تتلقى كلام الله تعالى بلفظه كما تنـزل على نبيه الكريم.

وعلى هذا، فإن كل ترجمة "هي معنى مبتور بل وناقص وقاصر".[1]

والنوع الثاني من التكرار تكرار القصة،[2] والقرآن الكريم يعتمد القصص أسلوباً بلاغياً في الدعوة. قال تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف:٣) وإن أكثر القصص دوراناً في القرآن الكريم قصص الأنبياء، لأنهم جوهر الدعوة ومناطها، ولعل قصة موسى عليه السلام أكثرها تردداً وتكراراً، لتصوير ما كان عليه بنو إسرائيل من عناد وجحود وكفران. وقد ورد ذكر موسى عليه السلام في أربع وثلاثين سورة من سور القرآن الكريم، وتأتي قصته أحياناً موجزة وأحيانا مفصلة، وأكثر ما وردت مفصلة في "طه" و"القصص" و"البقرة" و"الأعراف" و"الشعراء"، والمتأمل يصل إلى ما قرره بديع الزمان من أنه "لا تكرار إلا في الصورة"، وإلاّ فإن كل سورة تقدم لنا جوانب جديدة من القصة، ومشاهد غير معهودة، وكل مرة يقع

(١) نفسه، ص ٤٣٩. وقال أيضا "إنه لا يمكن ترجمة القرآن الكريم ترجمة حقيقية، و لا يمكن قطعا ترجمة أسلوبه الرفيع في إعجازه اللغوي. وإن من الصعوبة جدا إفهام الذوق وبيان الحقيقة النابعين من ذلك الأسلوب الرفيع في إعجازه المعنوي" نفسه ٥٠٣.

(٢) الكلمات، ص ٥٢٨.

التركيز على جانب من الجوانب، فمرة على حياة موسى ﷺ، ميلاداً ونشأة إلى أن استوى وأوتي النبوة، ومرة تقع العناية بتصوير عناد الكافرين ومآلهم، وحينا يظهر مشهد متميز، كمشهد "مؤمن آل فرعون" في سورة "غافر"، أو مشهد "السامري" وعجل بني إسرائيل في سورة "طه"، وهكذا دواليك..

ففي كل مرة تتكرر فيها القصة يتجدد معنى من المعاني، وفي كل مشهد تتولد عبرة من العبر، وفي كل كرة يقع التركيز على دلالة من الدلالات، فقصة موسى مثلاً تتكرر مراراً كما رأينا، ويكون الغرض حينا ترسيخ التوحيد وصفاء العقيدة، وحينا إثبات القدرة الإلهية، وحينا تصوير الصراع بين الحق والباطل، وإبراز مآل المؤمنين ومصير الكافرين، وحينا عناية الله بالمتقين، وحينا تأكيد وحدة الدين وتعدد الرسالات، وحينا إبراز وحدة المنهج في الدعوة إلى الله تعالى، وهكذا...

أسرار التكرار

قد يتساءل الإنسان عن سر التكرار في القرآن الكريم، وكيف حدث أنه لا يورث السأم والملل، كغيره من الأساليب البشرية، وبتتبعنا لرسائل النور نتبين أن وراء التكرار أسراراً وأسباباً ودوافع، ويمكن إجمالها فيما يلي:

إن النظريات الأدبية الحديثة، حين تتناول النص الأدبي، لا تتناوله بمعزل عن عناصره المكونة التي هي: الخطاب، والمخاطِب، والمخاطَب، أي المرسل والمتلقي وعملية التلقي نفسها، وعندما نحلل عناصر بلاغة التكرار، كما بينها النورسي، نجد أنها تعتني عناية فائقة بهذه العناصر، وإليها يؤول الإعجاز في بلاغة التكرار.

١. مصدر الخطاب: إن لمصدر الخطاب، أي المخاطِب، أهمية قصوى في طبيعة الخطاب نفسه، فالخطاب يمتلك قوته أولاً من مصدر الخطاب، وحين يكون المخاطِب هو الله تعالى فلا بد أن يكون للخطاب قوته الباهرة، وفعله

النافذ. والتكرار حين ينبع من هذا المصدر، الذي هو الله تعالى، يكون له الوقـــع الكبير الذي لا يكون له إن صدر عن سواه.

إن هذا الأمر طالما عني به النورسي وفصل الحديث فيه، وهو يتحدث عـــن الخطاب القرآني خاصة، وبيّـــن "أن منابع علو طبقة الكلام وقوته وحسنه وجماله أربعة: المتكلم، والمخاطب، والمقصد، والمقام، لا المقام فقط... كما ضـــل فيـــه الأدباء. فانظر إلى من قال؟ ولمن قال؟ وفيما قال؟".[١]

ولذلك فانه "لا يقاس القرآن على سائر الكلام"[٢] لأنه "الأثر الحقيقي النفاذ المتضمن للقدرة والإرادة".[٣]

٢. **طبيعة الخطاب**: ويلحق بمصدر الخطاب، طبيعة الخطـــاب، وكمـــا أن مصدر الخطاب هو الله تعالى، فكذلك طبيعة الخطاب أنه الهي، وهو لذلك شامل ومتنوع، وقد جاء التكرار مستجيباً لذلك الشيوع والتنوع، إذ القرآن الكـــريم: "كتاب دعاء ودعوة، كما أنه كتاب ذكر وتوحيد، وكل مـــن هـــذا يقتـــضي التكرار".[٤]

٣. **تجديد الخطاب**: لقد كان المكذبون بيوم الدين يواجهون ﷺ بأنماط من التكذيب، على شكل أسئلة متكررة، أو شبه متماثلة، فكان لا بد من رد تلـــك الشبه الباطلة، والإجابة عن تلك الأسئلة المتكـــررة في صـــورها، متجـــددة في حقيقتها. ومن أكثر الشبه التي أثارها المعاندون قضية البعث بعد الموت، ونحن إذا تتبعنا هذا الأمر وجدنا القرآن الكريم يبدي فيه ويعيد، ويدحض مزاعم الضالين،

---

(١) المثنوي العربي النوري، ص ٧٨.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) الكلمات، ص ٥٢٨.

بصور هي أقرب إلى الإفهام، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٨ – ٧٩)".

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (الرعد:٥).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (السجدة:١٠).

وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (ق:١٥).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (سبأ:٧).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ (الإسراء:٤٩).

يقول بديع الزمان: "إن تكرر الحاجة يستلزم التكرار. هذه قاعدة ثابتة، لذا فقد أجاب القرآن الكريم عن أسئلة مكررة كثيرة خلال عشرين سنة".[١]

٤. تجديد المخاطب "المتلقي": يتجدد الخطاب بتجدد الأسئلة، كما أنه يتجدد بتجدد المخاطب أيضاً. إن القرآن الكريم كتاب هداية للناس جميعاً، في كل العصور، وفي كل عصر أيضاً يتجدد المعاندون الذين يلحدون في آيات الله، فكأن التكرار في القرآن الكريم متجدد أيضاً ليخاطب تلك الفئات البعيدة، المتباينة في المكان وفي الزمان أيضاً، وهكذا نجد القرآن الكريم قد "أرشد بإجاباته المكررة طبقات كثيرة متباينة من المتخاطبين".[٢]

(١) الكلمات، ص ٥٢٨.

(٢) نفسه.

٥. تجدد المعاني والعبر: إن القرآن الكريم في تكراره البليغ لجملة واحـــدة أو لقصة واحدة، إنما يجدد المعاني والعبر. "فكل ما كرر في القرآن الكريم إذن من آية أو قصة إنما يشتمل على معنى جديد وعبرة جديدة".[١]

٦. تجدد التلقي: قد يبدو أن بعض ما يتعرض له القرآن الكريم من إحداث أمر جزئي، .متعلق بزمان بعينه، أو بشخص بعينه، إلاّ أن النظر العميق يبرز أن من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم "انه عند تناوله "حوادث جزئيـــة" وقعـــت في حياة الصحابة الكرام أثناء نـــزوله وإرسائه بناء الإسلام وقواعد الشريعة، فتـــراه يأخذ تلك الحوادث بنظر الاهتمام البالغ، مبيناً بهـــا أن أدق الأمـــور لأصـــغر الحوادث جزئية انما هي تحت نظر رحمته سبحانه، وضمن دائرة تدبيره وإرادتـــه، فضلاً عن انه يظهر بها سننا إلهية جارية في الكون ودساتير كلية شاملة. زد على ذلك إن تلك الحوادث -التي هي بمثابة النويات عند تأسيس الإسلام والشريعة- ستثمر فيما يأتي من الأزمان ثماراً يانعة من الأحكام والفوائد".[٢] وهكذا يتجدد التلقي بتجدد الأحوال وتجدد الأزمنة وتجدد الناس.

صور التكرار

يأتي التكرار في القرآن الكريم في صور كأنها تمثل مراحـــل أو درجـــات في الخطاب، وهذه الصور هي:

١. الإثبات: وكأن هذا الخطاب موجه إلى المنكرين المعاندين، فيأتي التكرار على شكل تقريع يراد من ورائه إثبات ما ينكرون. وتقرير ما به يكذبون، واهم ما يتوجه إليه الإثبات ألوهيته سبحانه وتعالى ووحدانيتـــه وقدرتـــه وإحاطتـــه،

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

فالقرآن الكريم "يكرر تلك الجمل والآيات أيضاً عند إثباته أن جميع الجزئيات والكليات ابتداء من الذرات إلى النجوم إنما هي في قبضة واحد أحد سبحانه وضمن تصرفه جل شأنه".[١]

٢. **الترسيخ:** وكأن هذا الخطاب موجه إلى المؤمنين ليرسخ المعاني في نفوسهم فيزيدهم إيماناً، فالقرآن الكريم يكرر إرشاداته للناس"وذلك عند ترسيخه في الأذهان وتقريره في القلوب ما سيحدث من انقلاب عظيم وتبدل رهيب في العالم وما سيصيبه من دمار وتفتت الأجزاء، وما سيعقبه من بناء الآخرة الخالدة الرائعة بدلاً من هذا العالم الفاني".[٢]

٣. **البيان:** إذا كان التكرار في الكلام البشري يحسن في موضع ويقبح في موضع، كما قال ابن رشيق، فإن التكرار في القرآن الكريم، بصوره المختلفة، يمثل أسمى صور البلاغة، ولذلك فإن القرآن الكريم يكرر تلك الجمل والآيات أيضاً "عند بيانه الغضب الإلهي والسخط الرباني على الإنسان المرتكب للمظالم عند خرقه الغاية من الخلق، تلك المظالم التي تثير هيجان الكائنات والأرض والسماء والعناصر، وتؤجج غضبها على مقترفيها ".[٣] فتكون النتيجة بذلك "إن تكرار تلك الجمل والآيات عند بيان أمثال هذه الأمور العظيمة الهائلة لا يعد نقصا في البلاغة قط، بل هو إعجاز في غاية الروعة والإبداع، وبلاغة في غاية العلو والرفعة وجزالة -بل فصاحة- مطابقة تطابقاً تاماً لمقتضى الحال".[٤]

---

(١) نفسه، ص ٥٢٩.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

حكمة التكرار

إذ تبين لنا أن التكرار في القرآن الكريم كله بلاغـة، وان لا تكـرار إلاّ في الصورة، وانه لا يبعث الملل والسأم، فلنا أن نتساءل عن الحكمة من هذه الظاهرة البلاغية، وهنا نجد أجوبة مفصلة مبثوثة في مواضع من رسائل النور، فمـن وراء تكرار الجمل والآيات حكمة، ومن وراء تكرار القصص حكمـة، ومـن وراء سوق القرآن ألوف الدلائل لإثبات أمور الآخرة وتلقين التوحيد وإثابـة البـشر حكمة، وهكذا.

فالقرآن الكريم يعبر اكثر من عشرين مرة عن حقيقـة التوحيـد -صـراحة أو ضمناً- في صحيفة واحدة من المصحف، وذلك حسب اقتضاء المقام، ولزوم الحاجة إلى الإفهام، وبلاغة البيان، والحكمة من وراء ذلك انه يهيج بـالتكرار الـشوق إلى تكرار التلاوة، ويمد به البلاغة قوة وسمواً من دون ان يحدث سأما أو مللاً.[١]

ثم "إن اغلب السور المطولة والمتوسطة -التي كل منها كأنها قـرآن علـى حدة- لا تكتفي بمقصدين او ثلاثة من مقاصد القرآن الأربعة وهي: التوحيـد، والنبوة، والحشر، والعدل مع العبودية بل كل منها يتضمن ماهية القرآن كلـها، والمقاصد الأربعة منها".[٢] والحكمة من وراء ذلك "إن القرآن يذكر مـا هـو مسطور في كتاب الكون الكبير ويبينه بوضوح، فيرسخ في أعمال المؤمن إحاطة ربوبيته سبحانه بكل شئ، ويريه تجلياتها المهيبة في الآفاق والنفس".[٣]

والقرآن الكريم يكرر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَـارُ جَهَـنَّمَ﴾ (فـاطر:٣٦) ﴿إِنَّ

(١) نفسه.

(٢) نفسه، ص ٥٣٠

(٣) نفسه، ص ٥٣٣

الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم:٢٢) وأمثالها من آيــات الإنذار والتهديد.

والحكمة من وراء هذا التكرار"إن كفر الإنسان إنما هو تجاوز -أي تجاوز- على حقوق الكائنات واغلب المخلوقات، مما يثير غضب الــسماوات والأرض، ويملأ صدور العناصر حنقا وغيظا على الكافرين، حتى تقوم تلك العناصر بصفع أولئك الظالمين بالطوفان وغيره".(١)

أما تكرار القصص، ولا سيما قصص الأنبياء عليهم السلام، فقد بين بــديع الزمــان أن "الحكمة في تكرار قصة موسى ﷺ -مثلا- التي لها من الحكم والفوائد مــا لعــصا موسى، وكذا الحكمة في تكرار قصص الأنبياء إنما هي لإثبات الرســالة الاحمديــة، وذلك بإظهار نبوة الأنبياء جميعهم حجة على أحقية الرسالة الاحمدية وصدقها، حيث لا يمكن أن ينكرها إلاّ من ينكر نبوتهم جميعاً. فذكرها إذن دليل على الرسالة".(٢)

هذه أولى

ثم إن كثيراً من الناس لا يستطيعون كل حين ولا يوفقون إلى تلاوة القــرآن الكريم كله – بل يكتفون بما يتيسر لهم منه. ومن هنا تبدو الحكمة واضــحة في جعل كل سورة مطولة ومتوسطة بمثابة قرآن مصغر ومن ثم تكرار القصص فيها بمثل تكرار أركان الإيمان الضرورية. أي أن تكرار هذه القصص هــو مقتــضى البلاغة وليس فيه إسراف قط. زد على ذلك فان فيه تعليماً بان حادثة ظهــور محمد ﷺ اعظم حادثة للبشرية واجل مسألة من مسائل الكون".(٣)

هكذا إذن ننتهي إلى أن أهم خصائص التكرار في القــران الكــريم، كمــا استنبطها بديع الزمان سعيد النورسي هي:

---

(١) نفسه، ص ٥٣٤.

(٢) نفسه، ص ٥٣٥.

(٣) نفسه، ص ٥٣٥-٥٣٦.

١. تكرار لا يمل، بل هو على العكس من ذلك، كلما كررته زادك جدة وجمالاً.

٢. لا تكرار على الحقيقة إلاّ في الصورة، وإلاّ فهو تجدد مستمر.

٣. إن التكرار في القران الكريم كله معجز، وهو مظهر من مظاهر البيان المعجز.

ولعل خير ما يختتم به هذا البحث ما ختم به بديع الزمان نفسه حيث قال: "وهكذا فلأن حقائق القرآن المكررة تملك هذه القيمة الراقية، وفيها من الحكم ما فيها، فالفطرة السليمة تشهد أن تكراره معجزة معنوية قوية وواسعة، إلاّ من مرض قلبه وسقم وجدانه بطاعون المادية، فتشمله القاعدة المشهورة:

قد ينكر المرء ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم".[1]

(١) نفسه، ص ٥٣٧.